النجوم (عن لسان راع)

- الفونس دوديه -

حينما كنت أرعى الماشية في جبال (ليبورن) كان يصدف لي إن أظل لوحدي مدة أسابيع، لا يصحبني غير كلبي (لابري) و القطيع. ولكني كنت القي بين حين وآخر راهب جبل (أور) يتحرى عن أزهار جبلية، أو أرى بعض فحامي (البيامون) بوجوههم الكالحة. وكانوا أناسا طيبين اعتادوا الصمت لفرط العزلة ففقدوا لذة المحادثة والاجتماع، حتى أنهم ما كانوا يأبهون لما يجري هناك على السفوح، في المدن والقرى.

وكنت أتلقى مئونتي من المزرعة كل خمسة عشر يوما. وعندما كنت أسمع أجراس البغلة تسير في الطريق المصعد نحوي حاملة ذخيرتي العزيزة، راستبين عن بعد رأس خادم المزرعة الصغير (ميار و) أو شعر العمة العجوز (نوراد) كانت تغمرني موجة من السعادة لا توصف فاجلس لأستمع بلذة وشغف إلى أخبار البلاد في السهل، الولادات والأكاليل وغيرها..

ولكن أنباء ابنة معلمي الآنسة ستيفانيت الحلوة كانت تشغلني بصورة خاصة. فكنت اسأل، دون أن اتخذ مظهرا فاضحا من الاهتمام عما إذا كانت ترتاد الحفلات وتحضر الأعياد، وفيها إن كانت قد بدأت تستقبل العشاق الخاطبين.

أما لمن يريد إن يسألني عما كان يهمني مثل هذا، أنا الراعي المسكين في هذا القفر، فأقول إني كنت في العشرين من عمري. وكانت ستيفانيت أجمل صبية رأيتها في حياتي.

وجلست مرة، وكان يوم أحد، انتظر ذخيرتي. وصدف يومها أن جاءتني متأخرة فقلت لنفسي في الصباح، إنها صلاة الأحد شغلتهم عنى. رهبت عند الظهر عاصفة هوجاء ممطرة فقلت: قد تكون البغلة لم تستطع السير، لو عورة المسالك في مثل هذا الجو.

وصحت السماء حوالي الساعة الثالثة وبدا الجبل نديا لامعا تحت بريق الشمس والماء، فسمعت خلال حفيف الأوراق وهدير السواقي المتضخمة، صوت أجراس البغلة ترن جذلانة مرحة كأجراس العيد.

ولكن!.. لم يكن الصغير ميارو الذي يقودها، ولا العجوز نوراد: بل الآنسة ستيفانيت ذاتها وقد تربعت فوق أكياس القش وورد وجنتيها نسيم الجبال المنعش، بعد العاصفة.

وعلمت منها، وهي تنزل عن بغلتها إن الصغير ميارو مريض والعمة نوراد ذهبت تقضي بضعة أيام لدى أولادها.

وخيل إلي وأنا أتأملها مسربلة في حالة الأحد، بشريطها المزهر وتخاريم فسطانها اللامع إنها اقرب إن تكون قد تأخرت في حفلة رقص من أن تكون ضلت الطريق بين الدغل والمليق.

يا للمخلوقة اللطيفة!

لم تكن عيني لتمل النظر إليها. والحق لم أكن قد رأيتها عن كثب من قبل. ففي الشتاء عندما كنت انزل بالقطيع إلى الحقل وأعود في المساء لتناول عشائي، كانت كثيرا ما تجتاز البهو متوثبة مرحة وهي في كامل زينتها وتبدو عليها بعض مظاهر الترفع والزهو. ولم تك تكلم أحدا من الخدم. وها هي الآن أمامي، ولي وحدي! ألم يكن في هذا ما يدعو إلى الخبل ؟

وأفرغت ستيفانيت من السلال المؤنة المعروفة، و راحت تتطلع من حولها باهتام وشغف. ثم رفعت بعضا من ذيل فسطانها الجميل خشية أن يتلوث، ودخلت الحظيرة تتطلع إلى البقعة التي أنام فيها: فراش القش، جلد الغنم، معطفي الكبير المعلق على الحائط، بندقيتي. كل هذه الأشياء كانت موضع اهتمامها ومثارا لهجتها وحبورها.

– هنا تعيش إذن يا راعي المسكين. لشد ما يضرك إن تظل وحدك دائما. ماذا تعمل ؟ وبماذا تفكر ؟

وكان بودي أن أقول لها: أفكر فيك يا سيدتي. ولم أكن – بكاذب.

ولكن اضطرابي كان على درجة من الشدة حتى لم أجد كلمة واحدة أقولها. وأظن الخبيثة شعرت بذلك فاستلذت أن تضاعف من ارتباكي.

– وحبيبتك أيها الراعي. الا تصعد لتراك أحيانا؟ قد تكون على التأكيد، المعزاة الذهبية أو الجنية (استيريل) التي يحلو لها أن تسير على قمم الجبال.

وبدت لي ستيفانيت ذاتها كالجنية استيريل بضحكتها الحلوة ورأسها العابث وهذه السرعة الخاطفة تتوخى بها العودة. مما أضفي على زيارتها طابع الرؤيا المسحورة.

– وداعا أيها الراعي.

– على أجنحة السلامة يا سيدتي.

وها هي تذهب بالسلال الفارغة وتتوارى في المنحدر فأخال الحصى التي تتناثر تحت حوافر بغلتها تقع واحدة واحدة فوق قلبى.

وسمعت طويلا أصوات الحصى...

وظللت إلى آخر اليوم في شبه غيبوبة لا أجرؤ على القيام بحركة خشية أن يتبدد حلمي اللذيذ.

وفي المساء، وكانت جوانب الأودية قد بدأت تتشح بالزرقة، وحيوانات قطيعى تتدافع لندخل الحظيرة شراذم، سمعت صوتا يناديني من جهة المنحدر. ولم ألبث أن رأيت ستيفانيت، وقد زال مرحها، واقفة أمامي ترتجف من البرد والخوف والبلل. فقد أوشكت أن تغرق وهي تجتاز نهر (السورج) بعد إن غذته السيول.

وكان الأمر الرهيب إلا يكون لها ثمة مجال للتفكير بالعودة إلى المزرعة في هذا الوقت، فهي لن تستطيع أن تتبين الطريق. وليس بوسعي أن أترك القطيع.

وكانت فكرة قضاء الليل على الجبل تضنيها كثيرا وبصورة خاصة، لما تسببه لأهلها من اضطراب وقلق.

وسعيت جهدي إلى تهدئة روعها. قلت لها إن الليالي قصيرة في تموز، فان هي إلا ساعات سلئة وتنقضي. وأضرمت نارا كبيرة فجففت قدمها وفسطانها المبلل. ثم قدمت لها حليبا وجبنا.

ولكن آنستي الصغيرة لم تكن تفكر بطعام أو تدفئة. و كنت أرى الدموع تترقرق في عينها فتحدر بي رغبة ملحة، إلى البكاء أنا أيضا.

وكان الليل قد أرخى سدوله ولم يبق على قمة الجبل إلا غبار متناثر من أشعة الشمس وبخار من نور المغرب.

ورغبت إلى سيدتي إن تدخل لتستريح في الحظيرة. ووضعت فوق القش جلد حمل جميل، وتمنيت لها ليلة سعيدة، ثم جلست أمام الباب.

واني لأشهد على ربي إن أي فكرة سيئة لم تجل بخاطري، رغم نار الحب الذي كان يضطرم سعيرا في دمي، لا شيء غير فخر واعتزاز عظيم تملكني وأنا أفكر إن في زاوية الحظيرة، قرب هذا القطيع المعجب المذاهل، تنام ابنة معلمي كنعجة عزيزة تفوق نعاجي كلها بياضا وثمنا، وإنها هنا في حراستي.

لم تبد لي السماء من قبل مثل هذا الغور، ولم أر النجوم على مثل هذا البريق.

وفتح باب الحظيرة فجأة وظهرت أمامي ستيفانيت الحلوة. لم تكن تستطيع إن تنام. كانت النعاج تثغي في أحلامها.. أو تحرك الأعشاب اليابسة فتنبعث لها ضجة. وآثرت أن تأتي إلى قرب النار، فوضعت على كتفها معطفي الضخم ورميت أحطابا في النار وظللنا جالسين الواحد قرب الآخر دون أن ننبس بكلام.

إن الذين يقضون الليل تحت النجوم يحسون، في اللحظة التي يستسلمون فيها للكرى، بعالم سحري عجيب ينبثق أمامهم في غمرة العزلة و السكون، فتغني لهم الينابيع على أكثر من الصفاء، ويوقد لهم المستنقع شعلات صغيرة، وتتهادى أمامهم أرواح المغاور طليقة حرة.

وانك لتحس في الفضاء حفيفا وتمتمات لا تكاد تشعر بها كأنما هي أصوات الأغصان وهي تمتد و الأعشاب التي تنمو. فالنهار مجال الكائنات الحية أما الليل فللاشاء. وإذا كنا لم نألف هذا فإننا نشعر بشيء من الخوف. ولهذا كانت ستيفانيت ترتعش وتلتصق بي لأقل صوت أو حركة.

وتصاعد ألبنا صراخ طويل متماوج كأنه أنة شاك حزين مبعثها المستنقع الذي يتقد من بعيد. وفي الوقت نفسه هبطت فوق رؤسنا نجمة مرقت كالسهم وكأن الأنين الذي سمعناه يحمل معه نورا.

وسألتني ستيفانيت بصوت خافت: ما هذا ؟ قلت: نفس طيبة دخلت الجنة يا سيدتي. ورسمت شارة الصليب فاقتدت بي، وظلت برهة تنصت بخشوع ثم قالت :

– أصحيح أنكم سحرة أيها الرعاة ؟

– أبدا يا سيدتي. ولكننا نعيش هنا قرب النجوم ونعرف عنها أكثر مما يعرفه سكان السهول.

وكانت تتطلع إلى السماء ورأسها مسند إلى يدها يحيط بها جلد الخروف، فكنت أخاها راعيا صغيرا هبط إلى من السماء.

– آه لكم أري الليلة من نجوم. لم يسبق لي أن شاهدت منها كل هذا العدد.. الله ما أجملها. هل تعرف أسماءها أيها الراعي ؟

– اجل يا سيدي. هاك.. أن فوق رؤسنا طريق القديس جاك (درب التبان) وهو يتجه من فرنسا إلى اسبانيا. إن القديس جاك هو الذي رسم هذا الطريق ليهدي سبيل البطل شارلمان. وترين عن بعد عربة الأرواح (الدب الكبير) على أركانها الأربعة. والنجوم الثلاثة التي ترينها أمامنا هي الوحوش الثلاثة. وهذه النجمة الصغيرة اللاحقة بالثالثة هي سائق العربة.

ألا ترين هذه النجوم الصغيرة و كأنها الغيث المنهمر. إنها أرواح لم يقبلها الله في ملكوته.

وهناك الملوك الثلاثة (اوربون) وهي بمثابة ميزان توقيت لنا نحن الرعاة، فليس إلا أن ننظر إليها لنعرف، الآن مثلا، إن الزمن قد جاوز نصف الليل.

ولكن أجمل النجوم يا سيدتي هي نجمتنا. نجمة الرعاة. إنها تضيء سبيلنا في الفجر عندما نخرج بالقطيع، وفي المساء لدى عودتنا إلى

الحظيرة. ونحن نسميها (ماجيونه) ماجيلونه الجميلة التي تطارد (ساتورن) وتتزوجه كل سبع سنان.

– كيف أبها الراعي. النجوم تتزوج!

– اجل يا سيدتي.

وعندما بدأت اشرح لها كيف يتم هذا الزواج شعرت بشيء طري ناعم يرتمي بلطف على كتفي. وكان رأسها المثقل بالنعاس يتكي على صدري، وينبعث منه، مع حفيف الأشرطة والدنتيلا عطر شعرها المتماوج.

وظلت هكذا بلا حراك إلى اللحظة التي بدأت فيها النجوم تضاءل ويشحب لونها أمام ضياء النهار المتصاعد.

وأنا ؟!..

كنت أتأملها نائمة، وفي أعماق نفسي شيء من الاضطراب ترد عني غائلته قداسة هذه الليلة اللطيفة الساجية، والتي لم تكن لتبعث في نفسي غير الأفكار النبيلة الجميلة..

والنجوم من حولنا، مستمرة في سيرها الهادئ، راضية طبعة كقطيع كبير.

وكان خيل لي أحيانا إن إحدى هذه النجوم، ا كثرها ضياء. ورقة، قد ضلت طريقها، فجاءت تتكيء على صدري وتنام.

يتضمن هذا الفصل من كتاب المراهق لدستويفسكي آراء القصصي الروسي العظيم في مشاكل إنسانية واجتماعية خطيرة يضع لها حاولا

بوحي من وجدانه النير، وفيض من حنان قلبه الكبير.

والمراهق قصة دستويفسكي نفسه، في عهد نشأته الأولى، يعرض فيها للعوامل التي أثرت في بناء كيانه النفسي والخلقي. ومنها عقدة عائلية تتعلق بنسبه، هي محور هذا الفصل، ويعبر عنها بكلمة (المهم).